فلسفة المكان في الرؤية الشعرية الحداثية

د . محمد الهادي بوطـارن*

سـنحاول في هـذه القـراءة النقديـة الوقـوف علـى فلسـفة المكـان في الرؤية الشعرية الحداثية المتجلية في النصوص الشعرية للعديد مـن الشـعراء المحدثين ، الذين عملوا على شحن نصوصهم الشعرية بفلسفة المكـان بكـل أبعادها ، ولعل مرد ذلك يعود إلى طبيعـة هـذا المكـان ووقعـه علـى حيـاة الشاعر العربي الحديث ، ونهـدف مـن وراء هـذه الدراسـة ، إلى البحـث عـن نقاط التلاقي التعبيريـة والدلاليـة ، ونقـاط الاخـتلاف في الخطـاب الشـعري الحداثي ، وفي آلياته البلاغية والصورية ، « فالمكان يمثل محورا أساسيا مـن المحاور التي تـدور حولهـا نظريـة الأدب . . . وأصـبح ينظـر إليـه علـى أنـه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفني . وأصـبح تفاعـل العناصـر المكانية وتضادها يشكلان بعدا جماليا من أبعاد النص الأدبـي »[1] والمكـان بوصفه حيزا هاما في العمليـة الإبداعيـة فهـو « يلعـب دورا هامـا في تكـوين هوية الكيان الجمـاعي ، وفي التعـبير عـن المقومـات الثقافيـة ، وقـد أثـرت العوامل البيئية على المفاهيم الأخلاقية والجماليـة الـتي تحـرك الشـعوب في جميع أرجاء العالم ، ويصبح المكان إشكالية إنسانية إذا مـا اغتصـب ، أو إذا حرمـت منـه الجماعـة ، ولـذا فإنـه يكتسـب قيمـة خاصـة ودلالـة مأسـاوية بالنسبة للمستعمرين واللاجئين »[2] فالقارئ لأرضية البوح الشـعري للشـعراء المحدثين يكتشف أن ظواهر اجتماعية وسياسية وأدبيـة ، هـي الـتي أفـرزت السياقات وهيـأت الظـروف للانخـراط في الـدائرة المكانيـة الحداثيـة لكـل هؤلاء الشعراء .

وأول ما نفتتح به الخطاب التحليلي للمدونة الشعرية لفلسـفة المكـان عند هؤلاء الشعراء ، الذين عبرت شعريتهم عـن أبعـاد عبثيـة جـاءت نتيجـة

---

* المدرسة العليا للأساتذة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، بوزريعة ، الجزائر .

(1) جماعة مـن البـاحثين ، (أحمـد طـاهر حسـنين ـ أحمـدغنيم ـ حـازم شـحاته ـ مـدحت الجيـار ـ محمود البطل ـ نجوجي واثيو نحو ـ سيزا قاسـم ـ يـوري لوتمـان) ، جماليـات المكـان ، عيـون المقالات الطبعة الثانية الدار البيضاء المغرب ، 1988 ، ص3 .

(2) جماعة من الباحثين ، جماليات المكان ، ص 3 .

ظروف حياة الشاعر ، وكان من جملة المعادلات الفلسفية ، حضـور فلسـفة المكان ، الذي أخذ حيزا كبيرا في المدونات الشعرية لشـعراء هـذا العصـر ، وأهم القصـائد الـتي عـبرت عـن هـذا البعـد ، نـذكر علـى سـبيل المثـال لا الحصر القصائد التي تحمل عناوين « يـا رفـاقي » و« شـبح » ، « صـوت مـن سوريا » ، « يا جارتي » ، « تـأملات » ، « مصـر والشـام »للشـاعر المهجـري إيليا أبو ماضي .

فالمحلل لهذه العناوين يرى أن جلها تكثف لحظات سوداوية المكان ، فالشاعر يشعر بعزلة قاتلة وبوحدانية قاهرة وحصار مجهول ، تدعوه هذه العلامات إلى أن يستجدي ويستعطف وينادي أصدقاءه ، ليخرجوه من هذا المكان الموحش المظلم الذي لم يعد المكان الحلم ، أو المكان الذي ترتاح فيه خواطره ، فبمجرد الابتداء بأداة النداء « يا » يتبادر إلى الأذهان أن الأمر يتعلق بالغرق والنجدة .

إن أدوات النداء الموظفة في النص ، توحي مباشرة إلى الغرق وطلـب النجدة ، بعد أن هجـر الكـل المكـان وبقـي الشـاعر لوحـده يعـاني الوحـدة والاغتراب ، وأن دلالة « الرفاق » تحمل في مضامينها النضال من أجـل فـك الحصار ، والتحرر من عقـدة اغـتراب المكـان ، فلـم يوظـف الشـاعر كلمـة الصديق التي تدل علـى الحميميـة فقـط ، وإنمـا وظـف الرفيـق الـتي تخفـي رسائله في الوحدة والتضامن لتحرير العقل والمكان من الهيمنة الاسـتعمارية الغربية . أما قصيدة « يا جارتي » فهي قصيدة تندرج في نفس الاتجـاه الـذي عبر عنه الشاعر في قصيدة يا رفاقي ، حيث يدور مضـمونها حـول سـوداوية المكان وكيفية التخلص منها ، إنه يرى أن صـوته الموجـه للأهـل والأقـارب والخلان لم يجد نفعا ، إنه يدعوهم بإلحاح وشدة إلى تخليصه مـن غياهـب الوحدة والعذاب الذي خـيم علـى حياتـه ، إلا أن دعوتـه ظلـت كصـيحة في واد ، وكأني ببني قومه ووطنه ليست لهم أكباد أو آذان صاغية كسـائر الخلـق لنجدته وتخليصه من عذابه .

وأما قصيدة « شبح » للشاعر نفسـه ، فهـي تعمـق مـن حالـة الخـوف والضياع ، وأن المكان الذي تتحـرك فيـه الأشـباح هـو المكـان الخـالي ، أو مكان الأموات ، وبعبارة أخرى فإن إيليا أبو ماضي ، أراد من هذا العنـوان أن يدلل على أن المكان الأخضر ، أو المكان الحلم ، تحول إلى مكان للمـوت والخراب والدمار ، وإذا كانت هذه الأماكن تعبر عن الاغترابية السوداء ، فـإن

العناوين الشعرية الأخرى مثل «صوت من سوريا»، «مصر والشام»، هي قصائد تعبر عن الهروب من الأماكن السلبية نحو فضاءات الحلم والخلاص، وكلما نازعته أصوات الأشباح والموتى، إلا وخلصته أصوات سورية ومصرية وشامية، أو بعبارة أخرى إن أعماق وأعباق تاريخ هذه المدن المحمل بالهوية وبالانتماء هو رمز آخر للتخلص من المكان السلبي الاستعماري الكولونيالي.

إن قصيدة «يا رفاق» التي ألقاها الشاعر بمناسبة تكريم الشاعر د. ظافر الرفاعي وزير خارجية سوريا، ود. فريد زين الدين سفير سوريا في واشنطن ومندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة التي يقول فيها:

آشتهي الخمر وكأسي في يدي   وأحس الروح تعرى في ثيابي
يا رفاقي حطموا أقدا حكم   ليس في دني خمر لانسكاب
جف ضرع الشعر عندي وذوى   ولكم عاش لمري واحتلاب
رب هبني لبلادي عودة وليكن   الغير في الأخرى ثواب[1]

يشعر القارئ لهذه القصيدة، بأن الشاعر إيليا أبو ماضي عبر بصدق وببراعة فنية عن طبيعة المكان، حيث استحضر في النص كل الأسباب التي جعلته يعيش هذه الحالة، حالة الانفصام، وحالة الازدواجية، بمعنى الحضور والغياب في الوقت نفسه، أي الحضور في الوطن جسدا والغياب عنه روحيا، والمحلل لهذه القصيدة يكشف أن النص يتوزع على عدة مفاصل جوهرية، تتشابك في إطار وحدة عضوية.

فالأبيات الثلاث الأولى من هذه المقطوعة، تلخص الداء الذي ألم بالشاعر وبالأمة العربية والإسلامية الغنية بثرواتها وطبيعتها البشرية، ومع كل هذه الخيرات تحدث المفارقة، حيث ينتشر الجوع في أوساطها ويغيب الماء الزلال ويضيع فيه شبابه، وبعبارة أخرى فإن غياب الوعي بسبب احتساء الخمرة كرّس الوحدة والوهم، فالشاعر يدعوهم بصوت عال «يا رفاقي حطموا أقداحكم» لأنه بتحطيم الأقداح يتجلى الوعي الذي يضيء العتمة ويكشف عن المستور وتنتعش الثروة بتحرير المكان

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، شاعر المهجر الأكبر، تقديم جبران خليل جبران تصدير، د. سامي الدهان، الدراسة، الشاعر زهير ميرزا، طبع دار العودة بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص 152.

المقدس .

أما المفصل الثاني والـذي تعـبر عنـه بقيـة الأبيـات ، فقـد وظـف فيـه الشاعر ثنائية شرق ـ غرب ، وأن وجوده في الغرب وفي أمريكـا بالضـبط ، وفي نيويورك بشكل أدق ، أنه لا يمثل العيش في حالة اغترابيـة عميقـة ، لأن الشاعر ببساطة يعيش غريبا بجسمه لا بروحـه ، وشـبه نفسـه بالكرمـة الـتي تؤخذ من مكـان إلى آخـر ولكـن مـع ذلـك فهـي تعطـي الثمـار ، وتعصـر خمرا ، وهو شبيه أيضا « بالسوسن « الذي ترحل نقلتـه فتعطينـا زهـرة رأس كعاب ، فالشاعر على الرغم من وجوده الفعلي في نيويورك ، إلا أنه بروحـه موجود في هضاب الشرق في ابتسام فجره ، وفي صـمت دجـاه ، وفي أسـى تشرين ، وفي لوعة آب ، وفي الغوطة زهر ، وفي لبنان نجوى ، إنهـا أسمـاء لأماكن ومواقع موجودة في وطنه الأصلي .

وأما البيت الأخير مـن المفصـل الثـاني فهـو عبـارة عـن دعـاء للـرب لتمكينه من العودة إلى أصوله ، وإلى بلده ، ومسقط رأسـه ، جسـدا وروحـا ، وهي أمنية في حال ما إذا تحققت يكون قـد تخلـص مـن العقـدة الوحدانيـة بكل أبعادها والتي ظلت تلاحقه .

إن نص « يا رفاقي » هو بمثابة بيان شعري موجه إلى الرفاق ، يفصـل فيه حيثيات المكان ، في انفصام الروح وليس الجسد ، لأن الروح هي أعمـق ما يملـك الإنسـان وفي أن الانتسـاب إلى المكـان الـوطن يـتم بالالتحـام بـه روحيا ولو بعدت المسافة بينهما ، كـل هـذه الرسـائل الشـعرية حـول قيمـة المكان عبر عنها الشاعر بلغة شفافة وبأدوات تعبيرية جمالية أعطـت للـنص خلفية فنية راقية .

أما نقطـة ارتكـاز القيمـة المكانيـة في قصـيدة « شـبح » فإنهـا تعكـس مأساة العزلة التي يعيشها الشاعر بعيدا عن الأهل والخلان والوطن ، وتأكيـدا لهذا الإحساس الاغترابي الذي يعيشه الشاعر ، أنشد يقول :

يـا شـاعري قـل لـلألى هجرونـي ... آنـا مـا نسـيتكم فـلا تنسـوني
مـا بـالكم طـولتم حبـل النـوى ... يـا ليـت هـذا الحبـل غـير مـتين
قـد طفـتم الـدنيا فهـل شـاهدتم ... جـبلا عليـه مهـابتي وسـكون؟
أوردتم كمنـــاهلي؟ أنشـــقتم ... كـأزاهري في الحسـن والتلـوين؟
و لقـد تظللـتم بأشـجار فهـل ... رفـت غصـون فـوقكم كغصـوني ؟

و سمعتم شتى الطيور صوادحا أسمعتم أشجى من الحسون ؟[1]

يوجه الشاعر هنا ، إحساسه إلى شاعر مثله ، بحكم أن الشاعر أكثر حساسية وتفاعلا مع ما يعانيه أبو ماضي ، ولتكريس هذا البعد راح يذكر كل الذين هجروه في قلبه ، وفي وجدانه يدعوهم بدوره إلى أن يبقى هو أيضا في قلوبهم ووجدانهم ، كما يوجه الشاعر اللوم هنا إلى الأهل والأحبة ، بسبب إطالة حبل الفرقة في الوقت الذي كان ينتظر ويتمنى أن يكون هذا الحبل قصيرا ، غير متين ، وذلك لتحقيق التلاقي وإذابة جليد الفرقة ، وقد وظف أبو ماضي الطبيعة لتكثيف حالته النفسية ، فاستحضر أشجارها وجبالها وأزهارها وطيورها ، فهو يشعر أن هذه الطبيعة هي انعكاس لطبيعة لبنان (الوطن) وتوحي إليه فهو يشم رائحتها ويسمع أصواتها وأحاسيسها .

وإذا كان الإحساس بقيمة المكان في قصيدة « شبح » ضمنيا ، فإنه يتجلى بوضوح في النص الشعري « صوت من سورية « الذي يعبر عنه في النص الآتي :

صوت سوريا الجميله صوتك العذب الخيم
ضاحك مثل الخميله لاعب مثل النسيم[2]

يستحضر الشاعر في مخيلته الشعرية من خلال هذا النص ، سوريا الجميلة ، فترتسم صوتا عذبا ضاحكا تنعشه النسائم ، ويذوب الشاعر في سوريا ذوبان المتيم ، ومن خلال تضاعيف الاغتراب الذي يضفي الحزن ، يدعو أبو ماضي إلى كسر هذا الحاجز وإسماعه صوت الكنار ، فهذا الصوت هو المفكك وحده لحلقة الحزن ، لأنه يذكره بصوت كنار الديار والوطن ، ونعتقد أن أبا ماضي ، التجأ إلى العامل الكوني لتجاوز الاغتراب المكاني ، لأن كل عنصر طبيعي هو امتداد لطبيعة البلد الذي يعيش فيه ، وأن طيور الطبيعة وحيواناتها تتناسخ كونيا صورة وصوتا ، وهو ما يرفع عنه غين سوداوية المكان ، وإذا كان البشر يختلفون في طبائعهم وعقائدهم ، فإن الجغرافيا تتشابه وتبعث الأنس في الشاعر المغترب عن أهله ووطنه .

ومن النصوص المتميزة شعريا للدلالة عن المكان ، نص « يا جارتي

(1) إيليا أبو ماضي ، الديوان ، ص 726 .
(2) ينظر م ، ن : ص 681 ، و ص 682 .

« للشاعر نفسه الذي ربط فيه بين الحرب والاغتراب حيث يقول فيه :

و رحت أشكو إليها وهي ساهية لكنما قلبها الخفاق يقظان
حتى انتبهت فصاحت وهي مجهشة يا ليت ما قلته زور وبهتان
بل ليتني لم أسائل عنك جارتنا بل ليت قلبي إذ ساءلت صوان
يا ليت شعري وهذي الحرب قائمة هل تنجلي ولنا في الشام إخوان ؟
و هل تعود إلى لبنان بهجته وهل أعود وفي لبنان نيسان ؟
لا تضحكوا وبأرض الشام نائحة ولا تناموا وفي لبنان سهران[1]

إن اندلاع الحرب في لبنان جعل الشاعر إيليا أبو ماضي أكثر حميمية وارتباطا بالشام ، وكل ما يتمناه هو أن تعود للوطن لبنان بهجته وجماله ، فيسمع زقزقة الطيور ، ويبصر أشجار ألبان ، وأعشاب الشيح تزين الحقول ، إنه يرى أن عودة هذه العلامات إلى الوطن تفكك وتقلص من حدة الاغتراب المكاني ، ويوظف في هذا النص الثنائيات الضدية المتمثلة في النداء الموجه لبني وطنه ، على اختلاف أصنافهم وأشكالهم ، وتتمثل هذه الثنائية الضدية في الفئتين من البشر ، اللتان تتساوى في الأعضاء وفي الخلق ، إلا أنهما تختلفان في سلوكياتها وتصرفاتها ، فالنداء موجه للكرماء دون البخلاء ، على الرغم من تساويهم في الأعضاء ، كما أن النداء موجه أيضا للبواسل دون الجبناء ، حين يوجه دعوته إلى المخلصين من بني قومه ، أن يهبوا جميعا لنصرة الوطن الجريح .

ويعبر الشاعر بصدق ، عن ارتباطه بسوريا ولبنان وهما توأمان في الكرم وفي الجلال ، وأنه مستعد للفداء بروحه من أجل هذين البلدين العزيزين على نفسه ، فتجليهما ينزع عن الشاعر الحالة الاغترابية البائسة ويقلل من وطأة البعد والعزلة والفراق . حيث يقول :

الأرض ، سوريا ، أحب ربوعه عندي ، ولبنان أعز جبالها
و الناس أكرمهم علي عشيرها روحي الفداء لرهطها ولآلها!
و الشهب أسطعها التي في أفقها ليس الجلال الحق غير جلالها[2]

ويستمر في الحديث عن أهمية المكان وقيمته ، إلا أنه في هذه المرة يشيد بجمالية المكان باعتبار أن الموضوع هنا يتعلق بمصر ، وهو المكان

(1) م ، س : ص 689 .
(2) م ، ن : ص 586 .

الذي مر به الشاعر في حياته قبل الانتقال إلى أمريكا ، فالمكان (مصر) يتميز بجمالية خاصة ، وله وقع متميز على حياة الشاعر ، فلم يشعر طوال تواجده في مصر ، لا بالغربة ولا بالعزلة والوحدة ، فأهلها يتميزون بالجود والكرم والسخاء ، وقد وجد عندهم الشاعر حسن المعاملة وحفاوة الاستقبال وكرم الضيافة حتى أصبح لا يميز بين موطنه الأصلي لبنان وموطنه الثاني مصر . فيقول في الموضوع :

تحن إلى بلاد الشام نفسي ... آقطر الشام حياك الغمام
و ما غير الشام وساكنيه ... لبانتنا وإن بعد الشام
و لولا آن في مصر مقامي ... لعمر آبيك ما طال المقام
مضى عام علي بأرض مصر ... وذا عام ، وسوف يجيء عام
و ما مصر التي ملكت فؤادي ... ولكن أهلها قوم كرام[1]

ومن النماذج الشعرية المعبرة بصدق عن فلسفة المكان في الرؤية الشعرية الحداثية ، شعر إبراهيم ناجي الذي جسد هذه الظاهرة ومثلها أحسن تمثيل ، فالمتأمل في نصوصه الشعرية ، يلحظ تعدد مناحي المكان وتعدد صفاته ، حيث يتشظى هذا التعدد إلى الاغتراب المكاني الطبيعي ، الذي يشغل حيزا كبيرا في شعره ، ويتشابك مع الاغتراب المكاني العاطفي ليتداخل والاغتراب المكاني الفرداني . فالمكان أو الحيز المكاني للإنسان « له أبعاد مختلفة وأحجام قد يصعب تنظيرها لأنها تختلف طولا وعرضا ، ضيقا واتساعا ، علوا وانخفاضا وهكذا . . . لقد عاش الإنسان الأول في العراء فكانت الأرض والسماء كلتاهما على امتداد بصره الأفقي والرأسي حيزا مكانيا كان يتسع بحسب الرغبة والإرادة ، ويضيق على أساس منهما أيضا ، حين راح الإنسان الأول يحتمي في كهف بحضن جبل ، أو تجويف في كثيب رمل ، أو فجوة في مغارة إلى ذلك من أحياز مكانية نستطيع أن نقول عنها إنها هي التي شدته إلى أن يكون ، بل ويظل مخلوقا له جاذبيته بالمكان »[2] ومن هنا ظل الإنسان متمسكا بالمكان ومتشبثا به » .

فالشاعر إبراهيم ناجي كان من بين الشعراء المحدثين الذين جعلوا من المكان مرجعا أساسيا في أشعارهم وذلك لما في المكان من قيمة في

(1) م ، س : ص 629 .
(2) جماعة من الباحثين ، جماليات المكان ، ص 5 .

نفسية الشاعر . فكان للمكان في حياة الإ نسان قيمته الكبرى ومزيته التي تشده إلى الأرض ، ولا غرو فالمكان يلعب دورا رئيسيا في حياة أي إنسان ، فمنذ أن يكون نطفة يتخذ من رحم الأم مكانا يمارس فيه تكوينه البيولوجي والحياتي ، حتى إذا حان المخاض وخرج هذا الجنين يشم أول نسمة للوجود الخارجي كان المهد هو المكان الذي تتفتح فيه مداركه وتنمو فيه حواسه من بصر وشم وذوق وسمع ولمس ، بعده ــ أي بعد المهد ـ تتبلور الأبعاد المكانية للإنسان بصور أوضح في البيت والمدرسة والنادي والسينما والكازينو والشارع ، سواء في القرية أو المدينة أو الصحراء ، بل في البحر والجو أيضا في أحياز مكانية لا حصر لها »[1].

أما المستوى الآخر للمكان فيتأسس على مستوى القدر الذي يكون سببا في أن يعيش الشاعر الحالة الاغترابية ، بمعنى آخر أن القدر هو الذي يحرك معادلة القرب والبعد ، واللقاء والفراق .

فعلى مستوى الطبيعة نلاحظ في البيت الأتي أن الاغتراب المكاني يمس الكون كله ، على حد تعبير الشاعر الذي يقول :

أسلمني للكون كالوحش راقدا تمزقني أنيابه في الدجى وحدي[2]

لقد شبه الشاعر الكون بالوحش الذي ينقض على الإنسان يفترسه بمجرد ولادته . وتزداد حسرة الشاعر في كثافة حضور السواد المكاني في النص الآتي :

تعال سل القبيلة والجمال لأية غاية شدو الرحالا
وكيف تبدلوا آرضا بآرض وكيف تغيروا حالا وآلا
تطلعت العيون لعل ماء يتاح على الهواجر أوظلالا
ومد الشيخ في الصحراء لحظا كلحظ الصقر في الآفاق جالا
فإن تحب القفار عليه يوما ترد له سوافيها السؤالا[3]

تتجلى دلالة المكان الطبيعي في هذا النص ، المتمثل في ظاهرة المدينة :

ـ الصحراء ، أو المدينة والريف ، حيث يشعر ناجي ويحس بأن

(1) م ، س : ص 5 .
(2) إبراهيم ناجي ، ديوان إبراهيم ناجي ، طبعة دار العودة بيروت ، لبنان ، 1986 . ص 120 .
(3) م ، ن : ص 207 .

المدينة أسهمت في قتل الانتماء فيه ، وضيعت عليه هويته وانتماؤه ، في حين تبدو الصحراء صافية بطبيعتها ، راقيه بأخلاقها وطقوسها ، فالنص الشعري السابق ، يرسم فيه الشاعر صورة قبيلة ارتحلت بعد أن أقامت في مكانها مدة زمنية كبيرة ، وبدلت أرضا بأرض ، بحثا عن الماء والكلإ ، وكيف أن الشيخ بلحظه الذي يشبه لحظ الصقر ، يمسح الصحراء وتفاصيلها في لمح البصر ، ثم يدخل في أعماقها ، ونستخلص من ذلك أن حياة الشاعر ليس أبعد من حركة القبيلة في خارطة الصحراء ، فالإنسان في بدئه ، ولد رحالا ومسافرا متنقلا من مكان إلى آخر ، ، والملاحظة التي نخرج بها من هذا النص ، من توظيف الطبيعة ، إلى توظيف أهمية وقيمة المكان من الشاعر هو : اللعب على الكون وعلى التفاصيل وعلى عقد مقارنات بين الآن ـ الماضي ، والمدينة ــ الصحراء ، حيث استثمر الشاعر كل ما في الطبيعة من أجل تبليغ هذا الشعور الانتمائي للمكان .

إن الشاعر ها هنا وقع في حيرة وتيهان بسبب هجرة قبيلته أرض الأجداد حين شدوا الرحال إلى وجهة أخرى لعلهم ينعمون بالحرية ، والطمأنينة ، والراحة ، فقد شبه هذه المناطق التي كانت تعج بالحركة والنشاط بالصحراء القاحلة الجرداء ، فهذه القوافل التي هجرت الأوطان بحثا عن حياة وعيش رغيد في أوطان أخرى ، تراها أرحم من الوطن الأم ، قد عانت هي الأخرى من ويلات الفقر والظلم والقهر ، ما جعلها تفضل الغربة ـ بما فيها من سلبيات ومساوئ ـ عن الوطن الأصل . ويتساءل الشاعر عن أسباب هذه الهجرة والغربة فلم يلق ردا وإجابة لهذا السؤال ، ليصل في النهاية إلى مسلمة أن هذه هي سنة الحياة ، فكل قافلة لها نهاية ، مثلما لكل حياة إنسان نهاية ويبقى المكان في النهاية خالدا دون الفناء مهما عصفت به الأهوال والكوارث .

ويسترسل الشاعر في الحديث عن فلسفة المكان ، متحدثا في هذه المرة عن الحبيبة ، وما لاقته من ويلات وعذاب بسبب بعده عنها ، فانزوت في بيتها تذرف دموع البين والفراق ، فلم يتمكن من التواصل معها للتخفيف من آلامها ، فيشعر حينها بأن السبل قد انقطعت وضاقت به ، وأنه في شاطئ مهجور قد فارقته السفينة دون رجعة :

يا حبيبي غيمة في خاطري وجفوني وعلى الآفق سحابة
غفر الله لها ما صنعت كلما شاكيتها تندى كآبة

صـــرخ القفـــر لهـــا منتحبـــا وبكـــى مســـتعطفا ممـــا أصـــابه
فأصـــم الغيـــث عنـــه آذنـــه مـــا علـــى الآيـــام لـــو كـــان أجابـــه
كثـــر الهجـــر علـــى القلـــب فهـــل مـــن ســـلو آو بعـــاد يرتضـــيه
وقـــف العمـــر لهـــا معتـــذرا وثنـــى الركـــب عنـــان الســـفر[1]

يتقمص الشاعر ناجي الطبيعة في هذا النص ، حيث تتحول حبيبته إلى غيمة في خاطره وفي جفونه ، وفي أفقه سحابة متحركة ، وتبقى الطبيعة هي الرؤية التي يعبر من خلالها الشاعر عن إحساسه بأهمية المكان وقيمته ، وفي أن الزهر ينقل من فضاء إلى فضاء دون ذنب ، فكذلك الشاعر الذي يهجر من مكان لآخر تجره في ذلك الأقدار ، وهو ما عبر عنه في قوله :

أيها الشاعر كم من زهرة عوقبت لم تدر يوما ذنبها[2]

وأما صورة النيل فقد « أسهمت هي الأخرى في تخفيف وطأة الفراق على شاعرنا والتي يقول فيها :

أقبلـت للنيـل المبـارك شـاكيا زمني وقـد كثـرت عليـا همـومي
ومسـحت كفـي والجـبين بمائـه علـي آهـدئ ثـورة المحمـوم
وجلسـت آنثـر جعبـة معمـورة بالـذكريات جديـدها وقـديم[3]

يتحول النيل في هذا النص ، إلى رمز يرفع عن الشاعر الإحساس بالألم ، حيث يصبح الملاذ والمفرج عن همومه وهواجسه ، ويصبح ماؤه مباركا يطفئ به ثورته المحمومة ، ويدفعه إلى الشدو بأحلى الأشعار .

لقد نجح إبراهيم ناجي في أن يوظف فلسفة المكان في شعره ، من خلال البعد الفرداني الوحداني ، هذا البعد يستحضر المكان فيتلون بلون شعور الشاعر ، وإذا كان للمكان أبعاد فلسفية في العديد من النصوص الشعرية التي تم التعبير عنه بأشكال رمزية ، وبصور سريالية ، فإن المتن الذي اخترناه أنموذجا للدلالة عن أبعاد المكان بأشكال صريحةوواضحة ، يكمن فيما يأتي :

(1) إبراهيم ناجي ، الديوان ، ص 119 .
(2) م ، ن : ص 141 .
(3) م ، ن : ص 147 .

أجرجر وحدتي في كل حشد وأحمل غربتي في كل جمع[1]
أجر غربتي أيها العائد فقد ملني الداء والعائد
أجر غربتي فبلادي الهموم وليل بطيء الخطى راكد
تقاسمني في نواك الديار وأنت لي الوطن الواحد[2]

يعبر الشاعر عن حالته النفسية المتأزمة ، وعن شعوره بالوحدة في المجتمع ، وبالغرابة في الحشد ، وهو ما يعبر عن عمق المأساة التي يعيشها ، بحيث أن هذا الكم البشري الهائل ، الذي يعج بالحركة ، إلا أن الشاعر ناجي يشعر بالوحدة واليتم وسط هذا الحشد من الحضور .

إن هذه الوحدة ليست إحساسا يمكن أن يستغنى عنه في لحظة من اللحظات ، وإنما يجرجر هذه الوحدة ، ويحمل الغربة ، فالجرجرة والحمل لهما أكثر من دلالة حيث يتحولان إلى جزء من حياة الشاعر ، ويصبحان قدرا محتوما ، يلازمان الشاعر أينما حل ، ولا يمكن الاستغناء عنهما أو التحرر منهما .

وتتكرر كلمة « أجر » في باقي النص ، مما يوحي إلى الشعور بالعذاب والمتاعب التي يكابدها الشاعر في لواعجه ، وتزداد درجة المأساة حينما يرتبط « الجر » « بالغربة » فبمجرد ذكر الشطر الأول من البيتين الأول والثاني « أجر غربتي أيها العائد » ، « أجر غربتي فبلادي الهموم » إلا وتبدو أمامنا صورة (سيزيف) وهو يحمل حجرا إلى قمة سفح الجبل ، وبمجرد أن يصل إلى هذه القمة ، تتدحرج هذه الحجرة الملعونة نحو الأسفل ويتكرر المشهد أكثر من مرة ، وهكذا يصبح قدره المحتوم المتمثل في العذاب إلى الأبد ، والشعور نفسه ينطبق على شاعرنا الذي يحس بقدر الغربة والاغتراب الأبدي .

إن هذه الغربة والحالة الاغترابية المكانية تصبح أكثر مأساوية حينما تقترن « بالداء » و « الهموم » ويتوقف حينئذ الليل عن الحركية « ليل بطيء وهو ما يوحي إلى الشجن ، والقلق والهموم .

إن حياة الشاعر ها هنا أشبه ما تكون بحياة إنسان يعيش متاعب ومآسي كبيرة ، فلم يتمكن من النوم ليلا ، ولا يعرف للراحة سبيلا ،

(1) م ، س : ص 150 .
(2) م ، ن : ص 228 .

وتوقف الليل عن الحركية يطيل في متاعبه ومصائبه .

إن دلالة المكان في شعر إبراهيم ناجي ، لا ترتكز على أحادية التعبير ، ولا على أحادية الرؤيا فحسب ، وإنما تأخذ أشكالا تعبيرية رمزية تارة ، وأشكالا تعبيرية صريحة تارة أخرى ، كما أن التعدد في الرؤيا يمنح نصوص ناجي جماليات جديدة ، وبذلك لا يكرر الحديث عن نفسه في حالة الانسداد التي ينتهي إليها ، فالاغتراب عنده يمثل مرة بعدا ، ومرة أخرى يمثل شعورا داخليا ، وتتعدد العناصر المحفزة للشعور بالاغتراب المكاني عن الوطن ، والشعب ، والحبيبة ، والطبيعة ، والطيف ، يدل على عمق ورهافة شعرية ناجي التي تهتز شعريا وشعوريا بالرؤية البصرية ، وبالرؤيا البصيرية .

وأما النموذج الثالث من النماذج الشعرية التي اخترناها من الشعراء المحدثين للدلالة عن فلسفة المكان عند الشعراء المحدثين ، نذكر الشاعر التونسي ، أبو القاسم الشابي الذي جسدت أشعاره هو الآخر هذا البعد الفلسفي ، فالشابي يعرف بالشاعر الثائر ، وبصاحب الكلمات المقاتلة ، وبصوت المستضعفين ، فجاءت قصائده مجلجلة خطابة وإيقاعا ، تحمل دلالات ثورية ، وترسم ملامح الغضب ، والباحث في سيرة هذا الرجل يكتشف قوة شخصية الشاعر وشجاعته ، وأنه لا يخشى لومة لائم ، ومع كل هذا يخفي الشابي في عمقه رقة رومانسية مفرطة ، وأهم الظواهر التي تعكس هذه الصورة الرقيقة شعريا ظاهرة توظيف المكاني ودلالته في شعره من كل زواياه .

إن فلسفة جمالية المكان عند أبي القاسم الشابي كانت هاجسه الأول ، حيث ظل يترصدها ويقيم على قاعدتها قصائده الشعرية ، وذلك لما في المكان من جماليات» فجماليات المكان في المسرح الشعري ذات طبيعة مزدوجة ، فهي من ناحية تتعامل مع المكان كإطار (يشترك مع الزمن) ، ومن ناحية ثانية تتعامل مع المكان داخل الصورة الشعرية . من هنا كانت جماليات المكان جماليات تشكيلية ، وظيفية .

ويقدم المكان حلا للمبدع حين يريد الهروب ، أو حين يعمد إلى عالم غريب عن واقعه ، ليسقط عليه رؤاه التي يخشى معالجتها؛ وهنا يتحول المكان إلى رمز وقناع يخفي المباشرة ، ويسمح لفكر المبدع أن يتسرب من خلاله . وقد يكون المكان تقنية مستقبلية يتجاوز بها المبدع

مكانه وواقعه »[1] فالمكان في شعر أبي القاسم الشابي يرتبط بالموضوع الذي تعالجه القصيدة ، حيث يختار من مادة الموضوع المكان الذي يمثل حادثة أو موضوعا من الموضوعات المختلفة للحياة ، والمكان عنده يحمل أكثر من دلالة « وله مستويان ، أحدهما أحياز مكانية لها صفة القداسة الدينية كالأماكن المقدسة من مساجد وكنائس وصوامع وبيع وغيرها . . . أما المستوى الآخر فهو الاحياز المكانية الاصطلاحية ، تلك التي صنعها ويصنعها الدارسون والمبدعون على شتى طبقاتهم وحيثياتهم العلمية والأدبية؛ فهناك النحويون ، وقد رصدوا وصنفوا ودرسوا أحيازا أو ظروفا للمكان؛ وهناك الشعراء والقصاصون وكاتبو المسرحيات راحوا يتفننون في استخدام ظروف المكان وأسماء المكان مضيفين إليها ـ ربما لا شعوريا ـ الشيئ الكثير : تارة بالتحوير ، وتارة أخرى بالتشكيل والتغيير ، وطورا بالإسقاطات ، وتارة بالرموز والتلميحات ، وظهرت على أيديهم نماذج لا حصر لها من أحياز ـ أخشى أن اقول ـ ظروف المكان »[2].

وإذا كان مصطلح جمالية المكان لا تظهر جليا كمصطلح في شعر أبي القاسم الشابي ، فإنها توجد في تفاصيل النصوص وفي خلفيات الكلمات والصور ويشتبك هذا المصطلح مع كلمات أخرى شبيهة في الدلالة بهذا الحقل ، كما أن الغربة والشرود والكآبة ، والشقاء والتكبيل ، واليتم ، هي أيضا موضوعات تمثل سوادية المكان وتتقاطع مع جمالياته ، ففلسفة المكان عند هؤلاء الشعراء تحمل أكثر من دلالة ، فمن دلالة جمالية المكان الذي يعبر عن الحب والسعادة ، والتغني بالوطن والتمسك به ، إلى التعبير عن المآسي والغربة وكل ما يمثل سواد الحياة ومن بين النصوص التي مثلت الجانب السوداوي للمكان قول الشابي :

وغربة ، ما بها رفيق وظلمة ما لها ختام
تشق تيه الوجود فردا قد عضك الفقر والسقام[3]

يعبر الشابي في هذا النص عن فردانيته وشعوره بالوحدة القاسية المرتبطة بالظلمة التي تزيده تيها ، ولا يكتفي الشاعر بالعيش وحيدا ، بل إصابته بالمرض والسقام هي عوامل أخرى تعمق من آلامه ووحدته .

(1) جماعة من الباحثين ، جماليات المكان ، ص 22 ـ 23 .
(2) غاستون باشلار ، جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، الطبعة الثانية ، بيروت ، 1984 ، ص 46 .
(3) أبو القاسم الشابي ، ، ديوان أبو القاسم الشابي ، طبعة دار العودة بيروت ، لبنان ، 1988 ، ص 199 .

ويكتشف القارئ في النص الموالي ، أن مأساة الشاعر الاغترابية تـزداد عمقا ، حيث يصبح الشعور بهذا الحقل روحيا ، وهـي أقصـى مـا يمكـن أن يشعر به المرء ، فقد تجمعت في هذا النص ، جملة مـن الكلمـات والألفـاظ المشحونة باغترابية المكان مثـل : غربـة الـروح ، عطشـان ، الهيـام ، السـأم ، التشرد ، الردى ، الرميم ، وهي ألفاظ توحي كلـها إلى المأسـاة الـتي يعيشـها في الغربة فيقول :

في غربة ، روحية ، ملعونة ، أشواقها تقضي ، عطاشا ، هيما
يا غربة الروح المفكر إنه في الناس يحيا سائما مسئوما
شردت للدنيا . . . وكل تائه فيها يروع راحلا ومقيما(1)

ويواصل الشابي في الحديث عن قتامة الحياة ومآسيها ، حيث يوضـح في هــذين البيــتين ، أن الوحدانيــة وحــدها لم تعــد العامــل الــرئيس في الاغتراب ، وإنما تحالفها مـع الشـرود والعـيش مشـطور الفـؤاد يتيمـا ، هـو الذي جعله يشعر بمرارة البعد عن وطنه الجميل ، فيقول :

شردت عن وطني السماوي الذي ما كان يوما واجما ، مغموما
شردت عن وطني الجميل...آنا الشقي فعشت مشطور الفؤاد يتيما(2)

ومن النصوص التي يعمق فيها الشاعر شعوره باغتراب المكان قوله :

إن ا كئيب ، أنا غريب .
كآبتي خالفت نظائرها
غريبة في عوالم الحزن
كآبتي فكرة مغردة(3)
إن ا كئيب ، أنا غريب
وليس في عالم الكآبة من
يحمل معشار بعض ما أجد(4)

إن المحلـل للقطعـتين السـابقتين ، يلحـظ تراكمـا في الكآبـة معنـى وإشارة صريحة لها ، وتصبح هذه الكآبة سوداوية باعتبارها تتعانق مع شـبكة مــن الألفــاظ الأخــرى الــتي تصــب في نفــس الــدلالات مثــل الغريــب ، والحزن . . .

(1) أبو القاسم الشابي ، الديوان ، ص 204.
(2) م ، ن : ص 203 .
(3) م ، ن : ص 90 .
(4) م ، ن : ص 92 .

إن قدرة الشابي في التعبير عن فلسفة المكان بكل أبعادها ، شكل ما يسمى « بجمع ما لا يجمع » ، وإحالة كلمات ليست على أخواتها ، بل إلى نقائضها ، ومع ذلك تنفجر الصورة وتتشكل في صيغة تعمق الجرح ، وتزيد من هوة الشعور بالماساة والكآبة ،

« كآبتي خالفت نظائرها
غريبة في عالم الحزن »

يوضح الشاعر في هذه المقدمة ، بأنه يعيش كآبة فريدة متميزة ، حيث ينفتح أفق توقعنا على مجموعة خواتم لهذا التميز ، لتأتي اللحظة التي يعبر فيها الشاعر عن هذا الإحساس في أن « كآبته فكرة مغردة « بمعنى أن الكآبة ملازمة بتجربته في الحياة مثل ملازمة التغريد للطير ، وأنه جزء من طقوسه ولا يمكن أن يستغني إطلاقا عن هذا العامل .

إن بوح الشاعر ، هو بوح كئيب نستشف منه ديمومة الإحساس الاغترابي بالذات والمكان .

وتتضح مرارة سوادية المكان أكثر عند شاعرنا ، من خلال النصوص الشعرية التي جاءت في شكل نداء ، يهدف من ورائه إلى البحث عن من سيخلصه من هذا العالم الموحش ، المحفوف بالمخاطر التي تترتب عن المأساة المتمثلة في الغربة والألم والحزن والأسى التي اجتمعت في مكان كان يتمنى ان تجتمع فيه عناصر تضفي على الحياة طابع الجمال والسعادة أكثر :

يا صميم الحياة ! كم أنا في الدنيا غريب ! أشقى بغربة نفسي
بين قوم ، لا يفهمون أناشيد فؤادي ، ولا معاني بؤسي
في وجود مكبل بقيود ، تائه في ظلام شك ونحس
فاحتضني ، وضمني ـ كالماضي ـ فهذا الوجود علة بأسي[1]
ترنو لما حولها من زهور ، وما ثم إلا السحيق الجفيف

ويختم الموضوع بمقطوعة شعرية يتحدث فيها عن ما فعلت به الأيام المشحونة بالكآبة والأوجاع ، وما جنت عليه الغربة في هذه الدنيا وفي هذا العلم المحفوف بالمخاطر :

مهما تضاحكت الحياة فإنني أبدا كئيب

(1) م ، س : ص 283 .

أصغي لأوجاع الكآبة ، والكآبة لا تجيب
في مهجتي تتأوه البلوى ، ويعتلج النحيب
ويضج جبار الأسى ، وتجيش أمواج الكروب
إن ي أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطلعا بأحزان الشبيبة والمشيب[1]

تندرج النصوص السابقة ، ضمن دلالات الشعور بالسواد المر للمكان والحياة التي يعيشها ، حيث يبرز الشقاء ، والتكبيل والقيود ، والتيهان ، والظلام ، والنحس ، والبكاء ، والوحدانية ، والنوح ، والرثاء ، والندب ، والعزاء ، والبؤس ، والحزن ، والكآبة ، والسكوت ، والمشيب .

إن دلالة المكان التي عبرت عنها النصوص الشعرية للشابي ، قد ولد ت كل هذا المعجم السوداوي ، وكأني بالشاعر هو الذي يمثل البؤرة التي صنعت هذه الدوائر الرمادية .

إن التركيز في هذه الدراسة على النصوص الشعرية لهؤلاء الشعراء دون سواهم ، يعود إلى أن نصوص هؤلاء الشعراء جسدت ميدانيا ظاهرة فلسفة المكان أكثر من غيرهم ، ومثلت هذه الظاهرة أحسن تمثيل ، ولعل ظروف الحياة بشتى أشكالها وأبعادها التي ميزت حياة هذا الثلاثي ، تعد عاملا من العوامل التي طبعت شعريتهم بهذا اللون من الفلسفة التي تعتمد على الضدية والثنائية في الممارسة الشعرية الحداثية .

المصادر والمراجع :

/1 إبراهيم ناجي ، ديوان إبراهيم ناجي ، طبعة دار العودة بيروت ، لبنان ، 1986 .
/2 أبو القاسم الشابي ، ، ديوان أبو القاسم الشابي ، طبعة دار العودة بيروت ، لبنان ، 1988 .
/3 إيليا أبو ماضي ، ديوان إيليا أبو ماضي ، شاعر المهجر الأكبر ، تقديم جبران خليل جبران تصدير ، د . سامي الدهان ، الدراسة ، الشاعر زهير ميرزا ، طبع دار العودة بيروت ، لبنان ، دون تاريخ .
/4 جماعة من الباحثين ، (أحمد طاهر حسنين ـ أحمدغنيم ـ حازم شحاته ـ مدحت الجبار ـ محمود البطل ـ نجوجي واثيو نحو ـ سيزا قاسم ـ يوري لوتمان) ، جماليات المكان ، عيون المقالات الطبعة الثانية الدار البيضاء المغرب ، 1988 .
/5 غاستون باشلار ، جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا ، الطبعة الثانية ، بيروت ، 1984 .

(1) أبو القاسم الشابي ، الديوان ، ص 212 ، وص 213 .